الإسلام والحياة

للأستاذ محيي الدين الألوائي

إن العالم اليوم ينساق - طوعا أو كرها - إلى المبادئ التي أقرتها التعاليم الإسلامية ، ونادى بها الرسول الأعظم : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . قبل أربعة عشر قرنا مضت . وما السر الخفي وراء هذا الانسياق الفطري ؟ مع أن هناك محاولات تبذل لتشويه تعاليم الإسلام الحقة ، وتزييف إرشادات القرآن الصحيحة !! . كما نرى أناسا من الذين يزعمون الانتماء إلى حظيرة الدين الحنيف يبتعدون عن تعاليمه وإرشاداته . فأما سر هذا الانسياق فأن هذه المبادىء ، وتلك التعاليم فطرية إلهية تتمشى مع تطورات العالم وبيئاته وظروفه . « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

فإن فطرة الإنسان ، ونواميس الطبيعة لا تتغير ولا تتبدل مهما حاول المزيفون ، وسعى المخرفون لإبعاد الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فالقرآن كتاب الله المرقوم ، والطبيعة الكونية كتاب الله المختوم فكما لا يستطيع إنسان كائنا من كان ، تغيير شيء من الفطريات الإلهية ، والطبائع العالمية ، لا يستطيع أحد أن يبدل شيئا من القوانين الآلهية المنشورة فى كتاب الله السماوى المرقوم ، فإن عناصر الخلود ، وعوامل الصلاحية ، لكل زمان ومكان متوفرة فى تعاليمه التى تؤدى إلى تحقيق أسباب المجد والرقى والحضارة والرفاهية للجنس البشرى كله .

ولا تنفقد القوانين فى صلاحيتها وقابليتها بسبب سوء فهم الناس لها، أو الإهمال فى العمل بها ، ويعود السبب الحقيقى لانكماش الناس عن تعاليم الإسلام ، وابتعادهم عن توجيهاته إلى سببين رئيسيين ، أولا : عدم الفهم - أو سوئه - لأساليبه وإرشاداته كما يجب أن يكون ، واتباع الأهواء والمصالح الذاتية فى تطبيق قوانينه ، وتأويل أوامره ، وثانيا : هروب بعض العلماء - وأشباههم - وراء الألفاظ والكلمات ، مع غض النظر عن الحقيقة والغايات والإكتفاء بالسطحيات والابتعاد عن اللب والروح ، وفوق هذا وذاك فإن انهيار الأمبراطورية الإسلامية جعل الوهن والضعف واليأس يتسرب

إلى قلوب ضعفاء الإيمان من العلماء والباحثين فانهارت قوائم العلمية والبحثية ، واكتفوا ببعض المظاهر والتقاليد من الإسلام ، وهم من روحه ولبه براء !.

وإن كتاب الله المقدس المنزل على خاتم الأنبياء والرسل يحمل هدايه للناس كافة إلى يوم الدين فهو المكفل من رب الناس بحفظه وبقائه وخلوده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وأعد الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لأن يحمل رسالته للعالم أجمعه : أنسه وجنه ، أبيضه وأسوده ، وليكون شمس الهداية ، ومنار النور والعرفان ، فيقول الله سبحانه وتعالى فى معرض بيان مكانته عليه السلام ورسالته بين سائر الأنبياء ورسالاتهم : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا » ثم يقول : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

ويقول رب العباد فى كتابه الحكيم عن مكانة أمة محمد عليه الصلاة والسلام بين الأمم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ويفهم هذا صراحة من قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » .

وأما عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين جميعاً ، واستجابتها لكل حاجات البشر فى جميع مرافق الحياة فيبدو جلياً من قوله عز وجل مخاطباً رسوله الأجل « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله فيه : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » .

وفى ضوء كل هذا وذاك من الأدلة العقلية والنقلية لم يبق للباحثين عن حقيقة التعاليم الإسلامية ، وعن مدى قدرتها لبناء الحضارة الإنسانية الحقة ، وإقرار الأمن والطمأنينة فى الجنس البشرى إلا الرجوع إلى كتاب الله المرقوم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ، وهو السجل الخالد المحفوظ من كل تغيير وتبديل ، والمصون من كل تحريف وتصريف وسنة رسوله الذى قضت حكمته لأن يحمله رسالته الكبرى وجعله أسوة حسنة للبشرية

جمعاء ، « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » لأنه رسول الإنسانية قاطبة ، : « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » .

نظرة الإسلام الى الحياة :

يصف الكتاب الحكيم الحياة الدنيا بأسلوب معجز ، ليس فى استطاعة أى بليغ مهما أوتى من قدرة الدقة فى التعبير ، وليس فى مقدور أى كاتب ملهم مهما بلغت مقدرته فى إجادة التصوير ، أن يحيط بوصف الحياة الدنيا الواقعية بأحسن منه إذ قال : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » . وإن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لأحــــلام اليقظة تلعب بعقله ، وتعبث بخياله كما تشاء بل أقام له دلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على أن الحياة الدنيا مملوءة بالمحن ، وسريعة الزوال ، وأودع خالق البشر والقوى فيه من الطبائع والغرائز ما يحمله على تنازع البقاء وحب السيادة ، ولكن رسالة كل فرد من الجنس البشرى — فى نظر الإسلام — هى القيام بالأعمال الصالحة التى تعود فائدتها عليه وعلى الناس فى حدود العمران والنهوض والتقدم ، مع التمسك بالتقوى والإحسان والإيثار والمحبة ، لكيلا يندفع الإنسان إلى الافتتان بهذه الحياة المطلية بالغرور الكاذب ، ويكف عن التكالب وراء حطام الدنيا البراق .

وقد شيد الإسلام صرح الحياة الناجحة على أسس الإيمان الصحيح ، والعمل الصالح فيقول القــــرآن الكريم : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فلا يكفى الإيمان وحده لنيل الفوز والظفر فى الدارين ولإقرار الأمن والطمأنينة فى العالم ولكن يجب أن يكون مقرونا بالعمل الصالح. العمل الصالح لله عز وجل ، ولنفسه ولوالديه ولأقاربه ، ولوطنه ولمواطنيه والعالم الإنسانى كله ، ولا شك أن الإيمان منشأ العمل الصالح ، والعمل الصالح مظهره ، فلكل منشأ مظهره ، ومن هنا صارت الأعمال الصالحة بكل معانيها ومظاهرها لازمــــة لسعادة الدارين ، ولإقامة العدالة الإجتماعية فى الجنس البشرى .

وأما الإسلام فدين العقيدة والعمل ، فيجب - بمقتضى تعاليمه - على كل إنسان أن يعمل عملا يفيد صاحبه وغيره على حد سواء ، وتظهر هــذه الحقيقة النبيلة واضحة فى جميع تعاليم الإسلام التى أكدت بصراحة ووضوح أن الإنسان نتيجة عمله، وأن هذه

الحياة حياة عمل وسعى ، : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ويقول الشاعر العربي :

حياة الورى حرب ، وأنت تريدها
سلاما ، وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحنا
وكدحا ، ولو أن البقاء يسير

ويقول أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا
إن الحياة عقيدة وجهاد

ويعد الإسلام الإنسان جسميا وذهنيا لأن يواجه الحياة وهو بصير بأحوالها وخبير بشئونها ، فإن الإيمان بخالق الكون ، ووحدانيته ، وتفرده بالعبودية ، ومنح العون الحقيقي والإيمان بالآخرة ويوم الدين يربي في صاحبه روح الاعتماد ، في الشدائد ، على الله سبحانه وتعالى فيواجهها مطمئن القلب ويقبل على أداء واجبه نحو ربه ونفسه وأمته ووطنه في ثقة وإيمان ، ويعتمد في نجاحه ، بعد اتخاذ الوسائل الظاهرية على معونة الله وتوفيقه ، ونظرة من هذا القبيل إلى الحياة الدنيا تبعث في قلب الإنسان الشجاعة والصدق في العمل ، وتغرس في نفسه احترام حقوق الغير وعزته وكرامته ؛ لأن الناس سواسية أمام الله - لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وكلهم مسئول أمامه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ويقرر الإسلام أن الإيمان يجب أن يكون منشأ للعمل كما يكون العمل مظهرا له ، فإنه لا يوجد مظهر بلا منشأ ، فلذا يقرن القرآن الكريم الإيمان دائما ، بالعمل ، كما يقول في سورة العصر « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، وفي سورة التين : « لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيا حبذا لو تمكنت هذه الفكرة القرآنية السامية في قلب كل إنسان يتطلع إلى النجاح في هذه الحياة الدنيا فإن العمل الناشيء من صميم العقيدة الراسخة في القلب هو الذي يؤدي إلى النجاح وبلوغ المرام ؟ .

محيي الدين الألوائي

المدرس بكلية الطب - جامعة الأزهر